العقل

العقل أفضل مواهب الله لعباده ، ومن أعظم نعم الخالق على خلقه، وأمتع من العظيم على البشرية ، به يكمل الدين ، وتتم النعمة ، وتعظم المنحة ، تكمل به الأخلاق ، وتزكو به الآداب ، وتحلو به الحياة ، وهو الآلة في تحصيل معرفة الإله ، به تغبط المصالح وتلحظ العواقب ، وتدرك الغوامض ، وتجمع الفضائل .

وأفضل قَسْم الله للمرء عقله
فليس من الخيرات شيء يقاربُهْ
إذا أكمل الرحمنُ للمرء عَقْلَه
فقد كَمُلت أخلاقه ومآربُه

العقل دليل التائه ، ومرشد الحائر ، ومؤنس الغريب ، وغنى الفقير وسلوة الحزين ، ودليل الفلاح ، وأمارة النجاح ، ورأس البر وعنوان الخير .

ما وهب الله لامرئٍ هبةً
أشرفَ من عقله ومن أدبهْ
هما حياة الفتى فإن عُدما
فإن فقد الحياة أجمل بهْ

العقل دواء القلوب ، وشفاء الصدور ، وتاج المؤمن في الدنيا ، وقائده إلى الآخرة ، وعدته في النوائب ؛ لا يعدله شيء ، ولا يوازيه أمر، لا أعظم منه عزا ، ولا أبعد منه قدرا ، إذا تم العقل تمّ معه كل شيء ، وإذا ذهب العقل فلا قيمة لشيء .

إذا تمّ عقل المرء تَمَّت أموره
وتمت أياديه وتم بناؤه
فإن لم يكن عَقْلٌ تَبَيَّنَ نقصُهُ
ولو كان ذا مال كثيراً عطاؤه

عنوان الرشاد هو العقل ، وعمود السعادة هو العقل ، لو صور العقل لأظلمت معه الشمس لجلال نوره وجلال ضيائه . فهو رأس الفضائل ، وأسّ الآداب ، وينبوع الأخلاق ، جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مُدَبَّرة بأحكامه ، وأعظم الناس قدراً أتمهم عقلاً .

والعقل في اللغة بمعنى المنع ، يقال : عَقَلْتُ الناقة أي منعتها من السير . وقد سُمي العقل بذلك تشبيهاً بعقل الناقة (أي منعها من السير) لأنه يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قَبُحَتْ ، فمن عَقَله عَقْلُه عما لا ينبغي فهو العاقل ، قال تعالى : ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك : ١٠].

العقل مخلوق عجيب ، ونبأ غريب ، آية على عظمة الخالق ،

وشاهد على إبداع الواحد ، كم ترى من أشياء أبدعتها العقول؟! وكم من منتجات أنتجتها العقول؟! مصنوعات وآلات مذهلة ، كلها من إبداع العقل ، فمن الذي أبدع العقل؟ إنه الله جل جلاله فتبارك الله أحسن الخالقين!! .

يروى أن جبريل عليه السلام أتى آدم عليه السلام ، فقال له : «إني أتيتك بثلاث فاختر واحدةً ، قال : وما هي يا جبريل ؟ قال : العقل ، والحياء ، والدين ، قال قد اخترت العقل ، فخرج جبريل إلى الحياء والدين فقال : ارجعا فقد اختار آدم العقل عليكما ، فقالا : أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان» .

فلا يكمل الدين إلا بالعقل ، ولا يجمل الحياء إلا بالعقل فهما تابعان له ، كما أن العقل إذا حرم نور الدين ، وبصيرة الهدى فهو وبال على صاحبه ، وحسرة على حامله ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢٢].

فالكفار لهم عقول ولكن لا يعقلون بها ، ولهم قلوب ولكن لا يفقهون بها ، قال عز وجل : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤٤].

يعقلون كل شيء إلا أمر الله ، ويفهمون كل شيء إلا عن الله ، فمهما أوتوا من العقل إلا أنه عقل نكد ، وفهم تعيس ، وعلم بائس ، ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم : ٧].

كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه إذا كثر غلا ، والعاقل من عقله في إرشاد ، ومن رأيه في إمداد ؛ فقوله سديد ، وفعله حميد ، وعمله مجيد ، والعاقل الحق من عقل عن الله أمره ونهيه ، أولئك هم أولو الألباب .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرفٍ من الإنسان
ولربما طعن الفتى أقرانه
بالرأي قبل تطاعن الأقران

سئل عطاء بن أبي رباح : ما أفضل ما أعطي العبد؟ ، قال : «العقل عن الله» .

وسئل رجل من العرب ممن عُمِّر دهراً طويلاً : أخبرنا بأحسن شيءٍ رأيته ، قال : «عقلٌ طُلب به مروءة مع تقوى الله وطلب الآخرة» .

وقال أبو حاتم : «أفضل ذوي العقول منزلةً أدومهم لنفسه محاسبة ، وأقلهم عنها فترة» .

العقل كلمة جميلة ، ولفظة رائعة ، واسم محبب ، لا أعظم ولا أجمل من أن يقال فلانٌ عاقل ، أو فلانة عاقلةٌ ، فهو وصف يدعو إلى الإجلال ، ويحث على الإكبار ، ويزرع المهابة ، ويورث الاحترام . المرء بعقله أعظم من صاحب الملك بملكه ، وأجل من ذي سلطان بسلطانه ، وأعز من صاحب مال بماله. فالعاقل يطاع على غير سلطان ، ويُكرم على

غير مال ، فهو كالأسد يُهاب حتى وإن كان رابضاً .

سئل ابن المبارك ما خير ما أعطي الرجل؟ ، قال «غريزة العقل» . فمن العاقل؟ ، وما أمارات العقل؟ ، ومن العقلاء ؟

أول صفات العاقل وأماراته ، العقلُ عن الله تعالى والإيمان به ، والإذعان لحكمه ، والاتباع لرسله ، والإيمان بكتبه ، قال سبحانه : ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ .

[الرعد : ١٩]

وما تمّ دين أحد حتى يتم عقله ، واعلم أن العقل بلا دين حسرة وهلاك ، والمتدين من غير عقل يسيء إلى نفسه ، ويسيء إلى الناس ، ويسيء إلى الدين ، وكان الحسن البصري إذا أخبر عن رجل بصلاح قال : « كيف عقله؟ فما تم دين عبد قط حتى يتم عقله » .

وما أجمل أن يتحلى المرء بوفرة العقل ، وتمام الفهم ، وصفاء الذهن ونقاء القريحة ، واكتمال البصيرة ، ولا فائدة في العلم إذا لم يكن له من العقل دليل . وكان يقال إذا كان علم الرجل أكثر من عقله : كان قَمِناً أن يضرَّه عِلمُه .

فيا من تُباهينا بأنك جامعٌ
فنوناً من الآداب يجمعها الكهل
فَهَبْك تقول الحقّ أيُّ فضيلةٍ
تكون لذي علمٍ وليس له عقل

ومما يروى : ثلاث من حرمهن فقد حرم خير الدنيا والآخرة : «عقل يواري به الناس ، وحلم يداري به السفيه ، وورع يحجزه عن المحارم» .

قبيح بالإنسان أن يظهر بلباس الدين ثم يكون خلواً من العقل صفراً من الحكمة ، لا ينزل الأمور منازلها ، ولا يعرف للدعوة أحكامها ، ولا يجيد للمعاملة أساليبها ؛ ينطق عن سفه ، ويتصرف عن هوج ، ويمضي بلا بصيرة ، يُشوّه الدين ، ويُنَفِّر من الدعوة ، ويسيء إلى الملة ، كَدَرٌ في الفكر ، وعَكَرٌ في الذهن . فالعاقل مرجوٌّ خيره على كل حال ، والجاهل والأحمق مَخُوفٌ شرّهما على كل حال . فالعاقل حافظ لدينه حارس لشرفه ، مكرم لنفسه . ومما يروى أنه مكتوب في صحف موسى وحكمة داود عليهما السلام : «حقٌّ على العاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعةٌ يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويَصْدُقونه عن نفسه ، وساعةٌ يُخلِّي فيها بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون له لهذه الساعات ، وفضل بُلْغةٍ ، واستجمام للقلوب» .

وقال بعض الحكماء : «ينبغي للعاقل أن يتمسك بست خصال : أن يحفظ دينه ، ويصون عرضه ، ويصل رحمه ، ويحفظ جاره ، ويرعى حق إخوانه ، ويخزن عن البذاء لسانه» .

ليس شيء مما يدبِّره العـ
ـقل إلا وفيه شيء يريبُه

فأخو العقل ممسكٌ يتوقّى
ويخاف الدخول فيما يَعِيْبُهْ

يروى عن وهب بن مُنبِّه أنه قال : «وجدت فيما أنزل الله على أنبيائه : أن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل ، وأنه يكابد مائة جاهل فيستجرهم» .

قال أحد العلماء : «الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ، فالعاقل : الدين شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأي الحسن سجيته ، إن نطق أصاب وإن سمع وعى ، وإن كُلّم أجاب ، والأحمق : إن تكلم عجل وإن حدّث وَهِل ، وإن اسْتُنْزِل عن رأيه نزل ، وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن صحبته شانك» .

ويروى أن لقمان عليه السلام قال لابنه : «يا بني اعقل عن الله عز وجل فإن أعقل الناس عن الله أحسنهم عملاً ، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكابده ، يا بني ما عبد الله بشيءٍ أفضل من العقل» .

ويروى عن مُطرف أنه قال : «ما أوتي عبد بعد الإيمان أفضل من العقل» .

وقيل : «**للعاقل** خصال يُعرف بها : يحلم عمن ظلمه ، ويتواضع لمن هو مثله ، ويسابق بالبر من هو فوقه ، وإذا رأى باب فرصةٍ انتهزها ، يتدبر ثم يتكلم ، وإن عرضت له فتنة اعتصم بالله ثم تنكبها» .

والعاقل لا يقدم اللذة العاجلة ، والمتعة الزائلة على الحياة الدائمة والنعيم المقيم ، فإن الحياة مهما طالت ، والعمر مهما امتد ، والدنيا مهما أقبلت ، فلا بد من الرحيل ، ولا مناص من الفراق ، وهناك الدوام إما في الشقاء ، وإما في النعيم ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** ﴾ .

[القصص : ٦١]

فالعاقل يعلم أن الحياة الدنيا دار مرور وعبور ، وأنها لهو ولعب ، وتفاخر وزينة ، وأنها أشبه براكب قال تحت ظل شجرة ثم راح وتركها ، ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ .

[الأنعام : ٣٢]

والعاقل لا يبالي بما فاته من حطام الدنيا مع ما رزق من الحظ في العقل .

والعاقل لا يتكل على المال ، وإن كان في تمام الحال ، لأن المال يحل ويرتحل ، والعقل يقيم ولا يبرح .

والعاقل يأخذ العبرة من الأمم السالفة ، والقرون الغابرة ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الصافات:١٣٨] .

وقال سبحانه : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ .

[الحج : ٤٦]

العاقل يتأمل ملكوت الله تعالى ، ويتدبر آياته ، وينظر دلائل قدرته ، ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٥].

العاقل لا يتبع هواه ، ولا ينقاد لشهوته ، لأن الهوى عن الخير صاد وللعقل مضاد ؛ وهو ينتج من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ومن أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقيل العقل صديق مقطوع، والهوى عدوّ متبوع .

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
إلى كل ما فيه عليك مقال

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾

[النازعات : ٤١]

يا عاقلاً أردى الهوى عَقْلَهُ
مالك قد سُدّت عليك الأمور
أتجعل العقل أسيرَ الهوى
وإنما العقل عليه أمير

قال بعض العلماء : ركّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما ، فمن غلب عقلهُ على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوتُه على عَقْله فهو

شر من البهائم .

قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

[الفرقان : ٤٤]

والعاقل لا يقدِّم عَقْله على النّقل ، ولا يجعل الشرع تبعاً لرأيه ، فإنه لا يسلم إسلام من لم يسلّم لنصوص الكتاب والسنة ، وينقد إليها ولا يعترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه .

قال الزهري – رحمه الله – : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم ، وإن الذين قدّموا عقولهم على النقل وجعلوها فوق الشرع قد ضلوا ضلالاً بعيداً . وقعوا في الشك والحيرة والتردد ، وبعضهم فرَّ به عقلُه إلى الإلحاد والزندقة .

يقول أبو عبد الله الرازي بعد رحلةٍ طويلة نكدة في علم المنطق والكلام والفلسفة والعلانية :

نهاية إقدام العقول عقال
وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا
وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويقول : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وهذا فيلسوف آخر ممن سافر عقله في هذه المتاهات ، عاد في نهاية الأمر ليقول :

فـــيك يـا أغـلوطـة الـفِـكَـرِ
حـار أمـري وانقـضى عـمُـري
سـافـرتْ فـيك العـقـول فـما
رَبـحَـتْ إلا أذى الـسَّـفَـرِ

وقد سئل الشافعي – رحمه الله – عن أهل الكلام فقال : حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقد ألّف شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك كتاباً عظيماً سمّاه (درء تعارض العقل والنقل) . فالعقل كما أنه نعمة فقد يكون نقمة على صاحبه ، وسبباً في ضياعه وهلاكه إذا لم يخضعه لحكم الشرع ، وينره بنور الكتاب والسنة . ولقد كان من دعائه ﷺ : « اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك لتهدي إلى صراط مستقيم » [رواه ابن ماجة] .

ومن صفات **العاقل** أنه يتمرس مع الأيام ، ويتعلم من التجارب ، ويفيد من الحوادث ، والعرب يقولون : العقل التجارب ، ولا يكون المرء مصيباً في الأشياء ما لم يكن له خبرة وتجارب .

فالعقل يزداد بكثرة التجارب ، وممارسة الأمور ، ومن طال عمره نقصت قوة بدنه ، وزادت قوة عقله ، والتجربة مرآة العقل ، والغفلة ثمرة الجهل .

إذا طال عمر المرء في غير آفةٍ
أفادت له الأيام في كرّها عقلا

وأعظم الناس عقلاً وأوفرهم فهماً ، وأحسنهم حكمة ؛ هم الأنبياء عليهم السلام ، ولم يكن يوحى إليهم إلا بعد الأربعين ، ليبلغوا أشدهم وتقوى تجاربُهم ، وتَعْظُم ممارستهم ، وتطول مخالطتهم عليهم صلاة الله وسلامه .

ومن صفات **العاقل** أنه يبذل لصديقه نفسه وماله ، ولمعرفته رِفْدَهَ وعطاءه ، ولعدوه عدله وبرّه ، وللعامة بشره وتحيته ، ولا يستعين إلا بمن يحب أن يظفر بحاجته ، ولا يُحَدِّث إلا من يرى حديثه مغنماً .

والعاقل مُوقرٌ للرؤوساء ، ناصحٌ للأقران ، محب للإخوان ، متحرزٌ من الأعداء ، غير حاسدٍ للأصحاب ، ولا مخادع للأحباب ، ولا يتحرش بالأشرار ، ولا يبخل في الغنى ، ولا يشره في الفاقة ، ولا ينقاد للهوى ، ولا يجمح في الغضب ، ولا يمرح في الولاية ، ولا يتمنى ما لا

يجد ، ولا يكتنز إذا وجد ، ولا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ولا يشكو الوجع إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه .

والعاقل حسن السمت ، طويل الصمت ، لا يقاتل عدوه من غير عُدَّة ، ولا يخاصم بغير حجة ، ولا يصارع بغير قوة .

والعاقل لا يطول أمله ، لأن من قوي أملُه ضعف عمله ، ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله.

والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل ، ولا يسرع بالجواب إلا عند التثبت .

والعاقل لا يستحقر أحداً : لأن من استحقر السلطان أفسد دنياه، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه ، ومن استحقر الإخوان أفنى مروءته ، ومن استحقر العامة أذهب صيانته .

والعاقل لا يخفى عليه عيبُ نفسه ، لأن من خفي عليه عيب نفسه ، خفيت عليه محاسن غيره .

والعاقل يجتنب ثلاثة أشياء ، هي أسرع في إفسادالعقل من النار في الهشيم : الاستغراقُ في الضحك ، وكثرةُ التمني ، وسوءُ التثبت .

والعاقل يوطن نفسه على الصبر على جار السوء ، وعشير السوء وجليس السوء.

والعاقل يُعرف بسكوته وسكونه ، وخفض بصره وحركته في أماكنها اللائقة بها ، ومراقبته للعواقب ؛ فلا تستفزه شهوة عاجلة

عاقبتها ضرر ، وينظر في الأمور فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة ، من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل ، ويترك ما يخشى ضرره ، ويستعد لما يمكن وقوعه .

والعاقل لا يُحَمّل نفسه ما لا تطيق ، ولا يعرضها لإهانة ، ولا يمشي في ريبة ، ولا يتكلم بغيبة ؛ مراقب لربه ، محاسب لنفسه ، محافظ على أهله ، مصاحب لأبنائه ، مربٌّ لبناته ، بارٌّ بوالديه ، لطيف مع زوجته ، حارس لعرضه ، سباق إلى البر ، محجم عن الإثم ، هاجر لمواطن الريب ، واصلٌ لمجالس الأدب .

العقل نعمةٌ عظمى ، وهبةٌ كبرى يجب أن يشكر المولى عليها شكراً عملياً ؛ وذلك بحفظ العقل مما يكدر صفوه ، ويعكّر فهمه ، ويفسد صلاحه ، ويطمس نوره ، إنه أمانة يجب حفظها ، وعطية يتحتم رعايتها وذلك بالبعد عن الشبهات ، والحذر من الشهوات .

إن حماية العقل وحراسة الفكر واجب فردي ، وواجب جماعي ، وواجب حكومي . يجب على الفرد أن يحمي عقله من مهاوي الردى، ودروب الزلل ، ومراتع الخلل . ويجب على أفراد المجتمع أن يتعاونوا على حراسة العقول ، وحماية الأذهان ، ورعاية الأفكار . ويجب على الحكومات والمسؤولين أن يتقوا الله في عقول رعاياهم فيحولوا بينهم وبين ما يفسد عقولهم ، ويشوش أذهانهم ، ويطمس بصائرهم .

اللهم متعنا بعقولنا ، اللهم اعمر قلوبنا وعقولنا بحبك ، وحب من يحبك ، اللهم نوِّر أبصارنا ، واحفظ من الزيغ أفكارنا وعقولنا .

القلب

في أعماق النفس الإنسانية قوة خفية لا تُشاهد بالعين ، ولا تُرى بالمجهر ، ولا يعرفها التشريح ؛ إنها قوة معنوية يحسها الإنسان في حناياه تهديه إلى الواجب كأنها كشاف ينير له الطريق ، هذه القوة الكاشفة الهادية ، الآمرة الناهية ، المحذرة المحرضة ، الحاكمة المنفذة ، يسميها علماء الأخلاق : الضمير ، ويسميها بعضهم : الوجدان ، وسماها الإسلام : « القلب » .

قال ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » [أخرجه الشيخان] وكان من دعائه ﷺ : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » [أخرجه أحمد والترمذي].

فالقلب هو مدار الحياة ، وموطن الإيمان ، ومأوى المعتقد ، وليس الإنسان جسماً بعضه القلب ، ولكنه قلبٌ غلافه الجسم ، والعرب تقول: (إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه) ، مع أنهم قد ظلموا القلب حينما قرنوا اللسان به ، وهل اللسان إلا حاكٍ لأقل القليل من حركات القلب وانفعالاته؟! القلب يقرأ ما رسمه الله على السماء والأرض ، من آيات

الإبداع ودلائل العظمة ، ويشعر بذلك ويعيشه ، ولا يسمح للسان إلا بالقليل منه ، القلب لا يكذب أبداً ، واللسان لا يصدق إلا قليلاً .

إن شئت أن تنظر إلى أعجب ما خلق الله في السماء وفي الأرض فلعلك لن تجدَ أعجب ولا أروع ولا أدق ولا أجمل من قلب الإنسان . تصلح أوتاره ، وتشرق جوانبه فيفيض رحمةً وشفقةً وحباً وحناناً ، ومعانيَ لطافاً وشعوراً رقيقاً ، وتفسد أوتاره وتظلم جوانبه ، فينضح قسوةً وسوءاً حتى يهوي إلى أسفل سافلين . القلب حوى على دقّته كُنْهَ العَالمَ ، فما أدقه وأجله ، وما أصغره وأعظمه! إذا غَلُظَ انفض الناس من حوله ، وإذا لان اجتمعوا عليه ، قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

اتحد شكل القلب واختلفت معانيه ، فقلب كالجوهر الكريم ، والمعدن الأصيل ، صفا لونُه ، وراق ماؤه ، يتلقى الإشعاع ويعكسه ، وهو على أشَّد ما يكون ضوءاً ولمعاناً . وقلبٌ كالصخر قوي متين ، لا تهزه عبارة ، ولا تؤثر فيه كلمة ، ولا تنفعة موعظة ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ [البقرة : ٧٤] . قلب يشرق بالإيمان، ويأنس بذكر الرحمن ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] ، وقلب أظلم بالكفر وعمي عن الحق ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] ، إلى غير ذلك من ألوان القلوب وأنواعها .

ومن حيث موقف القلوب من الذنوب فقد جعلها النبي ﷺ قسمين فقال : « تُعْرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً ، فأي قلب

أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء ، حتى تصير على قلبين : قلب أبيض مثل الصفاة ، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْبدّ كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه » [رواه مسلم وأحمد].

وأما أقسام القلوب عموماً فقد روي عنه ﷺ قوله : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغْلَف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عَرَفَ ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدها القيح والدم ، فأي المادتين غلبت على الآخرى غلبت عليه » [رواه أحمد].

وقد قسم ابن القيم القلوب إلى ثلاثة أقسام : قلب سليم ، وقلب ميت ، وقلب مريض .

وأمراض القلوب منها ما يزول بالأدوية الطبيعية ، ومنها لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية .

إذا اتحدت عيون الناس وآذانهم ووجوههم ورؤوسهم نوعاً من الاتحاد فإن لكل إنسانٍ قلباً وحده ، ينبض بنوعٍ من حبٍّ وكره وقسوة وحنان ، وإعظام واحتقار ، ورفعة وانحطاط ، وإيمان وكفر ، لا يشارك في ذلك

قلب آخر ، وبهذا اختلفت قيم الناس ، وتعددت مراتبهم .

يموت القلب ثم يحيا ، ويحيا ثم يموت ، ويرتفع إلى القمة ويهبط إلى الحضيض . قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيفما شاء .

وحياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت .

القلب إن شئت فردوس ونعيم ، وإن شئت عناءٌ وجحيم ، هو إن شئت مَلَك ، وإن شئت شيطان ، وهو إن شئت نار تتقد بالحب .

هل الوجد إلا أن قلبيَ لو دنا
من الجمر قيدَ الرمح لاحترق الجمرُ

وإن شئت سلا فكان برداً وسلاماً :

وقلت لقلبي حين لَجّ به الهوى
وكلَّفني ما لا أطيق من الحب
ألا أيها القلبُ الذي قاده الهوى
أفق لا أقرّ الله عينك من قلب

القلب مركز العاطفة ، والرأس مركز العقل ، وما العقل لولا العاطفة؟! من وجد كل شيءٍ وفقد قلبه فقد خسر كل شيء ، ومن خسر كل شيء ووجد قلبه فما خسر شيئاً ، وهل يُعمَّق أساس الإيمان وتوطّد أركانُه ، وتغرس جذوره إلا في القلب؟! «الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»

حرارة الذنب يكتوي بها القلب ، وحلاوة الطاعة يزكو بها القلب ، وهل يتجرع مرارة الحب ، ويكتوى بناره إلا القلب؟! وهل يتلظى بجحيم الوجد إلا القلب؟! وهل تضع الهموم رحالها إلا في القلب؟! وهل يتكبد لوعة الأسى وكتائب الأحزان إلا القلب؟!وهل السعادة إلا راحة القلب وسكونه؟! وهل الشقاء إلا تعب القلب وآلامُه؟! جنة الإنسان وسعادته في قلبه ، وناره وشقاؤه في قلبه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ماذا يفعل بي أعدائي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري » .

ويكفي القلب شرفاً ومنزلة ورتبة ورفعة أنه محلُّ نظر الربّ ، وموطنُ رضا الخالق « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [صحيح الجامع].

ويوم يقف الناس أمامه جل وعلا في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، هنالك لا ينفع المرء مالٌ ولا بنون ، ولكن تنفعُهُ سلامة قلبه ، ونقاء سريرته ، قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء : ٨٩] ، والقلب السليم هو الذي سلم من كل شهوةٍ تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهةٍ تعارض خبره .

إن التضحيات الرائعة ، والمواقف الخالدة التي سجلها عظماؤنا كانت أثراً من آثار المحبة العارمة التي فاضت بها قلوبهم ، وعمرت بها نفوسهم ، ﴿ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفتح : ١٨].

العقل هو القدرة الكاشفة والمخططة ، والقلب هو القوة الدافعة والمحركة . وقد جاء الإسلام يخاطب العقل والقلب معاً ، يخاطب العقل ليدرك ويتدبر ، ويخاطب القلب ليحب ويتأثر . في القلب سُلّم من العواطف لا تكاد تتناهى درجاته ، وفيه وقود هائل من الأشواق العارمة التي لا يقوى على وصفها أي قلم أو بيان . الذكرى تنفع من كان له قلب والفوز عند الله بالقلب السليم ، ومن اتبع هواه أغفل الله قلبه عن الذكر ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ونقض الميثاق عقوبته اللعنة وقسوة القلب ، قال تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [النحل : ٢٢].

المؤمن إذا ذُكر الله وجل قلبه ، والكافر والمنافق تأتيه الموعظة فتزيده قسوة ، ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر : ٢٢] .

الصفاء والنقاء والإخلاص والصدق تظهر على اللسان ، والحقد والحسد والكره يعرف ملامحه ذوو الإيمان ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ** ﴾ [محمد : ٢٩].

إن أي مجتمع من المجتمعات ، لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين وإصدار القرارات ، وتنظيم اللوائح ، ويقظة رجال السلطة – وإن كان لا يستغني عن ذلك كله – وإنما يرقى وينتظم ويسعد بوجود القلوب الحية ، وتوافر الضمائر اليقظة . وإن أعظم حياةٍ للقلب وأصدق محرك للضمير هو الإيمان ، فهو أقوى مُوَلِّدٍ يغذي القلب ويمده بالتيار الذي يمنحه الضوء والحرارة والقوة المحركة .

وإن الإيمان الصادق ، والإذعان الكامل لله جل وعلا هو الذي ميز ذلك الجيل الفريد ، والمجتمع العظيم في زمن النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم . وقد جعل الإيمانُ من الإنسان رقيباً على نفسه ، ومحترما لوجوده ، وصادقاً مع ربه ؛ أقام عليه شرطياً من ذاته ، ورقيباً من وجدانه وملكاً من جوارحه .

فعقيدة المؤمن في الله أولاً ، وعقيدته في الحساب والجزاء ثانياً ، تجعل ضميره في حياة دائماً ، وفي صحو أبداً .

إنَّه يعتقد أن الله معه حيث كان ، في السفر أو في الحضر ، في الجلوة أو في الخلوة ، لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولاعلانية ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ .

[المجادلة : ٧]

وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

[يونس : ٦١]

وإليك الآن بعض العلامات التي تدل على صحة القلب وسلامته ننقلها عن ابن القيم – رحمه الله تعالى – :

من علامات صحة القلب : أن لا يفتر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من خدمته ، ولا يأنس بغيره .

ومن علامات صحته : أنه إذا فاته وِرْده ، وجد لفواته ألماً أعظم من تألُّم الحريص بفوات ماله وفقده .

ومن علامات صحته : أنه يشتاق إلى الخدمة ، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب .

ومن علامات صحته : أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّهُ وغَمُّهُ بالدنيا ، ووجد فيها راحته ونعيمه ، وقرّت عينه ، وسرّ قلبه .

ومن علامات صحته : أن يكون هَمُّهُ واحداً ، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته : أن يكون أشحَّ بوقته – أن يذهب ضائعاً – من أشدّ الناس شحّاً بماله .

ومن علامات صحته : أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل .

وبالجملة فالقلب الصحيح : هو الذي همُّهُ كله في الله ، وحبه كله له ، وقصده له ، وبدنه له ، وأعماله له ، ونومه له ، ويقظته له ، وحديثه والحديث عنه ، أشهى إليه من كل حديث ، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابِّه .

رأيت الذنوبَ تُميت القلوب
وقد يُورث الذلَّ إدمانُها

وتركُ الذنوب حـــــيـــــاةُ القلوب
وخـــيـــرٌ لنفـــسك عـــصـــيـــانُهـــا

اللهم أصلح قلوبنا ، وزكِّ أنفسنا أنت خير من زكاها ، اللهم إنا نعوذ بك من قلب لايخشع ، ومن عين لا تدمع ، ومن دعوة لا يستجاب لها .

بر الوالدين

الإسلام دين الخلق العظيم ، والنهج القويم ، والتعامل الكريم ؛ دين المودة والألفة ، والمحبة والأخوة ، والشفقة والرحمة ، والبر والصلة .

الالتزام بنهجه سعادة ، والارتباط بأحكامه عزة ، والتأدب بآدابه حماية ، تفلح الشعوب إذا سارت على منواله ، وتقوى شوكة المجتمعات الملتزمة بحباله ، يزرع الطمأنينة ، وينشر المحبة ، ويبث المودة ؛ يسري رحيق آدابه إلى القلوب فيحييها ، ويفيض نداه إلى النفوس فيرويها ، ويفوح شذا عبيره إلى العقول ، فيهديها وينعشها ويزكيها . وإن من أعظم آدابه التي دعا إليها ، ومحاسنه التي حث عليها : بر الوالدين ؛ فهو من كمال الإيمان ، وحُسْن الإسلام ، ومن أفضل العبادات ، وأجلّ القربات ، طريقٌ إلى الجنة وسببٌ للمغفرة وزيادة في العمر ، وبركة في الرزق .

الأبوان .. رمز العطف ، وعنوان الشفقة ، ومهبط الرحمة .

الأبوان .. زينة الحياة ، وسعادة الوجود ، واستمرار الأنس ، وامتداد الرعاية ، والشعور بالعناية .

الأبوان .. وُجُودهما دعاءٌ مستمر ، وحرصٌ مستميت ، وعاطفةٌ

ملازمة ، ورحمة مُخيمة .

هل هناك أجمل وأحسن لدى الولد البار من صوت أبيه يدوي في البيت ، ومن نغمة أمه تتردد في المنزل ؟!! .

هل هناك أمتع لدى الولد البارّ من يد أبيه الحانية يجد بردها على صدره ، ويلمس عطفها بكفه ؟!! .

وهل هناك أروع من ابتسامة الأم في البيت ، ومن حسن لقائها ، وروعة دعائها ؟!! .

تتنقل في أركان البيت بسجادتها الطاهرة ، فما هو إلا صلاة ودعاء ، وبكاء ورجاء ، وتكبير وتهليل ، وتسبيح وتحميد ، نصف صلاتها تسبيح واستغفار ، ونصفها دعاءٌ وانطراح بين يدي الجبار ، أن يحفظ ابنها ويحميه ويقيه شر الأشرار . تغضب أنت على أبنائك فتريد عقابهم فتقف الأم « حائلاً » دونهم ، وتجعل نحرها دون نحورهم ، لا تنام حتى تعود إلى بيتك ، ولا تهدأ حتى تجد صوتك، وتطمئن على وجودك وصحتك وعافيتك . وقد تنزل بك النازلة لاسمح الله ، أو تحل بك الكارثة ، فيتضجر منك الناس ، ويمل منك جل الأقارب ، بل ربما إذا امتد بالإنسان المرض ، وطال به القعود تسأم منه زوجته وبنوه ، وإخوانه وأهلوه إلا الوالد والوالدة ، فلا يزيدهما ذلك إلا صبراً واحتساباً وخدمة وحناناً . إليك هذه القصة المؤثرة لترى حنان الأم وعطفها ، ورقتها وصبرها ، وتفردها وتميزها منذ قديم الزمان :

كان صخر بن الشريد أخو الخنساء في غزوة فقاتل فيها قتالاً شديداً فأصابه جرح واسع فمرض ، فطال به مرضه ، وعاده قومه ، فقال أحد الزائرين يوماً لامرأته سُليمى : كيف أصبح صخرٌ اليوم ؟ قالت : لا حياً فيرجى ولا ميِّتاً فينسى ، فسمع صخر كلامها فشق عليه ، وقال لها : أنت القائلة كذا وكذا ؟ قالت : نعم ، غير معتذرةٍ إليك ، ثم جاءهم زائر آخر ، فقال لأم صخر : كيف أصبح صخر اليوم ؟ فقالت: أصبح بحمد الله صالحاً ولا نزال بحمد الله بخير ما رأينا سواده بيننا . فلما سمعها صخر أنشد :

أرى أم صخر ما تمل عيادتي
ومَلّت سليمى مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازةً
عليك ومن يغتر بالحدثان
فأي امرئ ساوى بأمٍ حليلةً
فلا عاش إلاّ في أذىً وهوان
لعمري لقد أنبهتُ من كان نائماً
وأسمعت من كانت له أذنان

أيها الأحبة : إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد ، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات . وكما تمتص النبتة الخضراء كلَّ غذاءٍ في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاءٍ في البيضة فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيقٍ وعافية ، وكل جهد وكل اهتمام من

الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية ، وهما مع ذلك سعيدان بهذا البذل ، وهذه التضحية . أما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون بدورهم إلى الأمام إلى الزوجات والذرية ، وقلما يوجَّه اهتمامهم إلى الوالدين ، وفي هذا تنكّر للجميل ، وعصيان للجليل ، ونسيان للمعروف ، وإهدار للإنسانية .

تعالوا أيها الأحبة في سياحة سريعة ، وتعريجة خفيفة ، لنرى مكانة الوالدين في شرعنا الحنيف ، ونهجنا المطهر ، ودستورنا المبجل .

لقد قرن الله تعالى طاعة الوالدين بطاعته ، وجعلها تاليةً للأمر بتوحيده وعبادته ، فقال عز وجل في هدايته : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [النساء : ٣٦].

وقال عز من قائل : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣].

وقال جل وعلا : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [لقمان :١٤] . وهناً على وهن : جهداً على جهد ، أو ضعفاً على ضعف ، وفصاله في عامين : أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين .

ثم انظر إلى هذه الآيات العظيمة ، والكلمات المؤثرة ، والعبارات الموحية في قوله جل وعلا : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا**

قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء : ٢٤].

«كلمة عندك – وتقديم الظرف وهو – عندك – تُصَوِّر معنى الالتجاء والاحتماء من حالة الكبر والضعف» .

النهي عن كلمة «أُف» أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ، ألا يَندّ من الولد ما يدل على الضجر والضيق ، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب ﴿جناح الذل من الرحمة﴾ هنا يشف التعبير ويلطف حتى يبلغ شغاف القلب، فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عيناً ولا يرفض أمراً ، وكأنما لهذا الذل جناح يخفضه إيذاناً بالسلام والاستسلام . ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ أمر بالدعاء ، ولفتة للتذكير بالماضي، أيام الطفولة الضعيفة التي رعاها الوالدان . هكذا تتجلى عظمة هذا القرآن وروعة أحكامه ، وسمو تعاليمه ، وقمة آدابه ، ولا غرو فهو من لدن حكيم عليم! .

وإن العناية ببر الوالدين لم تكن مقصورة على الشريعة الإسلامية فحسب ، بل كان كذلك في الشرائع السابقة ، ومنذ بزوغ فجر الإسلام قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة : ٨٣] .

وقال تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا﴾ .

[مريم : ١٤]

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام : ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم : ٣٢]

أما الأحاديث الواردة عنه ﷺ فأكثر من أن تحصى ، فقد أمر ببر الوالدين ، ودعا إلى طاعتهما ، وحذر من العقوق ، وعده من كبائر الذنوب .

قال ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ، قال : «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال : «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . [متفق عليه].

وجاء رجل إليه ﷺ يقول : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغي الأجر من الله تعالى قال : «فهل لك من والديك أحد حيّ؟» قال : نعم بل كلاهما ، قال : «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» ، قال : نعم قال : «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» . ما أعظمه من دين وما أعظمها من تربية ، وما أسعده من نهج!! .

وقال ﷺ : «رَغِمَ أنفُ ، ثم رَغِمَ أنفُ ، ثم رَغِمَ أنفُ من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة» [رواه مسلم].

وسأله رجل عن أحب العمل إلى الله تعالى ، قال : «الصلاة على وقتها» ، قال : ثم أيّ؟ ، قال : «بر الوالدين» [رواه مسلم].

ويؤكد ﷺ على طاعة الأم بالذات ، وزيادة الاهتمام بها لأنها هي

التي نالت أشد التعب ، وتعرضت لأنواع الشدائد ، كم صبرت على ألم؟! وكم سهرت من ليالٍ؟! وكم ذرفت من دموع؟! وكم لحقها من ويلات الحمل والولادة والرضاعة والتربية؟!.

سأل رجل رسول الله ﷺ : من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من؟ ، قال : «أمك» ، قال : ثم من؟ ، قال : «أمك» ، قال : ثم من؟ ، قال : «أبوك» [متفق عليه].

وأخبر ﷺ أن خير التابعين أويس القرني ، وحثّ من وجده أن يطلب منه أن يستغفر له ، وضمن أنه لو أقسم على الله لأبرّه ، والسبب أن له والدة كان براً بها .

ويبين ﷺ أن الجنة تحت أقدام الأمهات .

استمع إلى هذا الحديث الرائع ، والخبر الماتع عنه ﷺ . عن معاوية بن جاهمة السلمي رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : «ويحك أحيةٌ أمك؟» ، قلت : نعم يا رسول الله ، قال : «ارجع فبرَّها» ، ثم أتيته من الجانب الآخر ، فقلت يا رسول الله ، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : «ويحك أحيةٌ أمك؟» قلت : نعم ، قال: «ارجع إليها فبرها» ، ثم أتيته من أمامه ، فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، قال : «ويحك أحيةٌ أمك؟» ، قلت : نعم يا رسول الله ، قال :

« ويحك الزم رجلها فثمَّ الجنة » [رواه ابن ماجة].

ثم انظر إلى شؤم العقوق وفظاعته وما يحل بالعاق من المقت والعذاب.

يقول ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه والمرأة المرتجلة ، والديوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن على الخمر، والمنان بما أعطى » [أخرجه النسائي، وانظر صحيح الجامع].

ويقول ﷺ : « رضا الرب في رضا الوالد ، وسخطُ الربّ في سخط الوالد » [صحيح الجامع].

وقد أشار ﷺ إلى لفتة عظيمة ، وواقع ملموس ، وأمر مشاهد ، وسنةٍ متبعة ، وهو أن العاق لوالديه تظهر عليه أسباب الندامة ، وملامح العقوبة ، وعلامات الشقاء ، وويلات العذاب في الدنيا قبل الآخرة . فيقول ﷺ : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا البغي وعقوق الوالدين أو قطيعة يعجل لصاحبه في الدنيا قبل الموت » [صحيح الأدب المفرد] . وكم والله رأينا من إنسان تُنَغّص حياته ، ويكدر عيشه ، وتنزل به المصائب ، وتحل به الكوارث ، ويجمع الناس أنه بسبب عقوقه لوالديه . وكم رأينا من إنسان ليس لديه كثرة صلاة أو صيام ولكنه موفق في حياته سعيد مع أهله ، مبارك له في رزقه ، ويعرف الناس أنه ببركة دعاء والديه ، وببره وطاعته لأبويه . جعلنا الله وإياكم من الموفقين البارين بالوالدين الفائزين برضا رب العالمين .

من مظاهر العقوق :

١ – تعريض الوالدين للسب أو اللعن . قال ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» . قيل : يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه ، فيسب أمه» [رواه البخاري ومسلم] ، وهذه للأسف تسمعها من كثير من الشباب .

٢ – سب الوالدين مباشرة أو إيذاؤهما ، ولو حتى بكلمة من حرفين «أف» ولو وجد أقل منها لقيلت .

غذوتك مولوداً ومُنْتُك يافعاً
تعلُّ بما أجني عليك وتَنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضامتك بالسقم لم أبت
لسقمك إلا ساهراً أتململُ
كأني أنا المطروق دونك بالذي
طُرقتَ به دوني فعينيّ تهملُ
تخاف الردى نفسي عليك وإنها
لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجل
فلما بلغتَ السن والغاية التي
إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظةً وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتي
فعلت كما الجار المجاور يفعل

٣ – الاهتمام بالزوجة والذرية وصرف كل الوقت والمال والعناية بهم مع إهمال الوالدين ، واهتمام الرجل بزوجته وأبنائه ليس فيه عيب أو غضاضة ، ولكن ذلك يصبح مقيتاً إذا قدم كل ذلك على والديه ، والتمس رضا المرأة معرضاً عن رضا الأم . وليعلم كل إنسان أن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان ، فإن بررت والديك برك أبناؤك .

٤ – البعد عنهم في المسكن وعدم الرعاية المستمرة ، والتفاني في الخدمة . وقد يظن إنسان أن إحضاره الخادمة لأمه يسقط عنه المؤونة ، ويزيل عنه التبعة ، وذلك غير صحيح ، فكلمة حنان منك ، وابتسامة رضا منك ، أحب إلى الأم من مائة خادمة .

قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن لي أماً بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حوائجها إلا وظهري لها مطية ، فهل أديت حقها ؟ قال : لا، لأنها كانت تصنع بك ذلك ، وهي تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وأنت تتمنى فراقها ، ولكنك محسن ، والله يثيب الكثير على القليل .

٥ – الغفلة عن تخصيص جزءٍ من الراتب للوالدين في شراء هدية ، أو مساهمة في معروف أو غير ذلك . لو خصصت من راتبك مائتي ريال في الشهر « ٢٤٠٠ في السنة » لكان فيها الخير الكثير

ولأدخلت بها السرور على والديك وكسبت بها دعاءً وحباً ورضاً وقبولاً . بعض الأبناء يشتري لزوجته ولأبنائه ولنفسه ، ولكنه يغفل عن والديه وهما أصحاب الفضل عليه .

كيف أنساكِ وقد أفنيت عمراً
ترسمين الحب حولي والأماني
كيف أنساكِ وفي قلبي هوىً
صاغه النور حروفاً في لساني
كيف يا أماه أنسى قُبلةً
ويداً كل مناها في احتضاني
لو أعيش الدهر أوفيك بحقٍ
وتمادى العمر دهراً ما كفاني

٦ – عدم برهما والإحسان إليهما بعد وفاتهما : قال رجل : يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : «نعم ، الصلاة عليهما – أي الدعاء لهما والاستغفار – وإنفاذ عهدهما بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما» [رواه أحمد] .

وقال ﷺ : «إن أبرّ البر صلة الرجل أهل ودِّ أبيه» [رواه مسلم].

وإن البر بالوالدين سببٌ بإذن الله تعالى في الفوز ببر الأبناء ، فكما تدين تدان .

ويقول ﷺ : «من برَّ والديه طوبى له زاد الله في عمره» .

[أخرجه الحاكم في المستدرك : ٤/١٥٤]

وأخيراً إليكم هذه التربية منه ﷺ عن طريق القصة ، وذلك في قصة الثلاثة الذي انطبق عليهم الغار ، قال ﷺ : «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت – والقدح على يدي – أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصِّبْيَةُ يتضاغون عند قدمي ، فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . . .» الحديث [متفق عليه] .

وهكذا كان برّ الوالدين سبباً لنيل رحمة الواحد الأحد وسبباً في إجابة الدعاء .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برّ الوالدة .

ويقول أيضاً : ما من مسلمٍ له والدان مسلمان يصبح إليهما محتسباً

إلا فتح الله له بابين – يعني في الجنة – وإن كان واحداً فواحدٌ ، وإن أغضب أحدهما لم يرض الله عنه حتى يرضى عنه ، قيل : وإن ظَلَما ؟ قال : وإن ظلما .

وقد ضرب الصحابة – رضوان الله عليهم – أروع الأمثلة في البر بالوالدين ، فهذا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان في بيت وأمُّه في بيت آخر ، فإذا أراد أن يخرج ، وقف على بابها ، فقال : السلام عليك يا أمّاه ورحمة الله وبركاته ، فتقول ، وعليك يا بُنيّ ورحمة الله وبركاته ، فيقول : رحمك الله كما ربيتني صغيراً ، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيرا .

قال المأمون لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه ، بلغ من بره به أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مسخن وهما في السجن ، فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فقام الفضل حين أخذ يحيى مضجعه إلى قمقم كان يسخن فيه الماء ، فملأه ثم أدناه من نار المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح .

يقول الإمام أحمد : «برُّ الوالدين كفّارةُ الكبائر» .

وخلاصة الأمر أن برّ الوالدين هو الخير والفلاح والرضا والسعادة والسرور والحبور في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴾ [نوح : ٢٨] .

صلـــــة الرحـــــم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١].

صلة الرحم .. متصلة ببر الوالدين ، وقد أمر الله تعالى بها وحث عليها كما حث على بر الوالدين ، ومن بر الوالدين بعد وفاتهما صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما .

صلة الرحم .. هي : الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والعطف عليهم ، والرفق بهم ، والرعاية لأحوالهم .

صلة الرحم .. حفظ للمجتمعات ، وقوة للكيانات ، وطاعة لرب الأرض والسماوات ؛ يُنال بها فضله ، ويُرجى بها كرمه ، ويستنزل بها جوده ، ويطلب بها عفوه .

صلة الرحم .. طولٌ في العمر ، وبركةٌ في الرزق ، وسعادةٌ في الحياة ، وذِكْرٌ بعد الوفاة ، وكسبٌ للقلوب ، وفلاحٌ للشعوب .

صلة الرحم .. رفعة وسمعة ، محمدة ومنقبة ، تملأ القلوب حباً ، وتزيد من الباري قرباً ، وتنير للمؤمن درباً ، وتيسر له صعباً . لصاحبها هيبة وجلال ، ولعدوها خيبة وضلال .

بها تَعْذُب الحياة ، وتحلو المعيشة ، ويصفو الكدر ، ويذهب الهم ويطرد الغم ، وتنشر السعادة أجنحتها ، وتغرس المودة أطنابها ، وتنثر الرحمة عبيرها .

أمر الله بها وأوجبها ، وأوعد بالمقت من غيبها . وديننا دين الخلق والألفة والمودة والمحبة ، والبر والصلة ؛ فلا تآلف إلا في ظلاله ، ولا ترابط إلا في كنفه .

قال تعالى : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الانفال : ٦٣] .

إن هذا الدين يأمر بالمودة والإحسان ، والحب والإكرام للمؤمن البعيد فكيف بالقريب ، فالحب والنصح وعدم الظلم ، واجب على المؤمن تجاه إخوانه مهما بعدت دارهم ونأت منازلهم ، وعدمت قرابتهم ، فكيف به مع القريب والنسيب! .

ولقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى ذي القربى في آيات متعددة ، وقرنها بطاعته وعدم الإشراك به وبطاعة الوالدين .

قال تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى ..** ﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ** ﴾ [الإسراء: ٢٦]

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ .

[النحل : ٩٠]

وقد امتدح الباري جل وعلا المؤمنين ذوي الألباب بقوله : ﴿ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾ [الرعد : ٢١] . والرحم مما أمر الله به أن يوصل .

وها هو ﷺ يمتع القلوب ، ويملأ الأسماع ، وينعش الأفئدة ، وينشر الرحمة والبر والصلة ، بأحاديثه الماتعة ، وتوجيهاته الرائدة ، وكلماته المنيرة ، فيقول : « من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه » [رواه البخاري] . ومعنى ينسأ له في أثره : أي يمد له في عمره .

ويقول ﷺ : « صلة الأرحام ، وحسن الجوار ، وحسن الخلق يعمرْن الديار ، ويزدن في الأعمار » [صحيح الجامع : ٣٧٦٧] .

ويقول ﷺ : « يا أيها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

[صحيح الجامع]

ويقول ﷺ : « كلّ رحمٍ آتيةٌ يومَ القيامة أمام صاحبها ، تشهد له بصلةٍ إن كان وصلها ، وعليه بقطيعة إن كان قطعها » . [الصحيحة : ٢٧٧]

ويقول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » .

[رواه البخاري]

ويقول ﷺ : «من سرّه أن يُبسط عليه في رزقه ، ويُنسأ في أثره فليصل رحمه» [رواه أبو داود] .

وبين ﷺ أن الصدقة على ذي القرابة والرحم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة .

بل يبين ﷺ أهمية صلة الرحم ، ويقدمها في حديثه على كسر الأوثان ، وتوحيد الله تعالى ، إعلاناً لأهميتها وشأنها ، ويبين أنها من أولويات مهمات الرسالة فيقول : «أرسلني الله بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يوحد الله ولا يشرك به شيء» [رواه مسلم].

ويبين أن صلة الرحم أعظم أجراً من العتق . عن ميمونة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : يا رسول الله أَشَعَرْتَ أني أعتقت وليدتي؟ قال: «أَوَ فَعَلْت؟» قالت : نعم ، قال : «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك» [متفق عليه].

وجاءه رجلٌ فقال : يا رسول الله إني أصبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ قال : «هل لك من أمّ؟» ، قال : لا ، قال : «هل لك من خالة؟» ، قال : نعم ، قال : «فَبِرَّها» [مشكاة المصابيح].

ثم بين ﷺ حقيقة الصلة وأن الواصل لرحمه ليس هو من يصل أرحامه إذا وصلوه ، ويقطعهم إذا قطعوه فيقول : «ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها» [رواه البخاري].

وبين أن حسن العاقبة وعظمة الأجر هي لمن يصل أرحامه وإن قطعوه .

جاء رجل فقال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، وأحلم عليهم ويجهلون عليّ ، فقال : «لئن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل – أي الرماد الحار – ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك» [رواه مسلم] ، وقد قال أحد الشعراء في هذا المعنى :

وإن الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدّا
إذا أكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومهم
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم
وإن هم هووا غيِّيْ هويت لهم رشدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

يقول عمر بن دينار – رحمه الله تعالى – : «تعْلمُنّ أنه ما من خُطوةٍ بعد الفريضة أعظم أجراً من خطوة إلى ذي الرَّحم» .

قال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

[الأعراف : ١٩٩]

فحينما سَأَل ﷺ جبريل عن هذه الآية قال : إن الله يأمرك أن تصل من قطعَك ، وتعطي من حرمَك ، وتعفو عمن ظلمك .

من طرق الصلة :

هذه بعض الأمور التي تعين الإنسان على صلة أرحامه والقيام بواجبه تجاههم ومنها :

١ – وضع جدول للزيارات ، فيلزم نفسه بأيام معينة من كل أسبوع أو شهر يجعلها لصلة الأقارب والأرحام .

٢ – قائمة بالأسماء والهواتف ، فيكتب أُسر الأقارب والأرحام وأرقام هواتفهم ، ويجعل أمام كل أسرة اسم يوم من أيام الأسبوع يتصل فيه بهم ، وهو أمر يسير ، حيث يتمكن الإنسان في دقائق معدودة عن طريق الهاتف من صلة رحمه ، ويرضي ربه ، ويقتدي بنبيه ، ويكسب محبة أرحامه وأقاربه ، ويبارك له في رزقه ، ويمد له في عمره .

٣ – ليس معنى الصلة الإنفاق والعطاء ، فلا يتصور الإنسان أن معنى صلة الرحم هو في مجرد الإنفاق أو البذل أو الصدقة ، فإن الإنسان يمكن أن يكون واصلاً لرحمه مطيعاً لربه حتى ولو لم يكن لديه درهم ولا دينار ، لأن حقيقة الصلة هي في بشاشة الوجه ، وسعة الصدر ، وسلامة الطوية ، وصدق النية ، وإضمار الخير ، وبذل النصح ، وحسن الظن ، وتلمس العذر ...

التحذير من قطيعة الرحم :

قطيعة الرحم فساد في الأرض ، وتفكك للأسر ، ودمار للبيوت ،

وهدم للدين ، وسواد للقلوب ، وتفشٍ للحقد ، وزرع للبغضاء ، وتعرض للّعنة والسخط ، وسواد المصير ، وغضب القدير . ونوجز مخاطر القطيعة فيما يلي :

١ - التعرض للّعنة والغضب من الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ .

[الرعد : ٢٥]

ويقول تعالى : ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾ [محمد : ٢٢].

٢ - من قطع رحمه قطعه الله .

قال ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى ، قال : فذلك لك » [متفق عليه].

وقال ﷺ : « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » [رواه مسلم].

٣ - قاطع الرحم لا يدخل الجنة .

قال ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع رحم » [رواه مسلم] ، وقد فسر العلماء هذا الحديث وأمثاله بأنه لا يدخل الجنة ابتداءً وليس معنى ذلك

أنه خالد مخلّدٌ في النار إذا كان مسلماً .

٤ - قاطع الرحم أعماله مردودة .

قال ﷺ : «إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع الرحم» [رواه أحمد] .

ونقل عن ابن مسعود أنه كان جالساً بعد الصبح في حلقة فقال : «أنشد الله قاطع الرحم إلا قام عنا ، فإنا نريد أن ندعوا ربنا وإن أبواب السماء مغلقة دون قاطع الرحم» .

- ولقد أوصى زين العابدين بن علي بن الحسين ابنه - رضي الله عنهم أجمعين - فقال : «لا تصاحب قاطع الرحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع» .

٥ - قاطع الرحم ممقوت بغيض :

إن من قطع أرحامه يُحرم مودتهم ومحبتهم ودعاءهم ، ووقوفهم إلى جانبه في الأزمات والملمات ، ولا يذكر اسمه إلا تضجّروا منه وتسخطوا ، وأطلقوا ألسنتهم بالدعاء عليه ، لهجره لهم وتنكره لقرابتهم .

قال عطاء - رحمه الله تعالى - : لدرهمٌ أخصه في قرابتي أحبّ إليّ من ألف درهم أضعها في فاقة . قال له قائل : يا أبا محمد وإن كان قرابتي مثلي في الغنى ، قال : وإن كان أغنى منك .

٦ - قاطع الرحم يحرم نفسه بركة الرزق ، وطول العمر لأن الصادق المصدوق ﷺ أخبر أن صلة الرحم تثمر بركة الرزق وطول العمر ، وهو لا

ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، بل إن صلة الرحم تبقى بركَتُها حتى بعد الوفاة .

يقول الطيبي – رحمه الله – : إن الله يُبقي أثر واصل الرحم طويلاً فلا يضمحلّ سريعاً كما يضمحلّ أثرُ قاطع الرحم .

فصلة الرحم خيرٌ كلها ، والقطيعة كلها شؤم ونكد ، وظلمة وظلام، ومعصية للواحد العلام .

الجـــــار

لازلنا نعيش مع مجموعة من المثل السامية ، والقيم العالية ، والأخلاق الزاكية ، نتفيؤ ظلالها ، نقطف ثمارها ، نتأمل رُواءها ، نشتم عبيرها . تلك المثل التي يفوح شذاها عطراً تزكو المجتمعات بعبقه ، وتنتشي النفوس بعبيره ، وتسعد الإنسانية بأريجه . تلك المثل التي ترفع راية هذا الدين على كل راية ، وتعلن أنه السبيل الأمثل بل الأوحد للهداية ، والطريق الأقوم للعناية والرعاية ، توحيدٌ وعقيدة ، عبادةٌ وريادة، سعادةٌ ورشادة ، خلقٌ ومثل ، حبٌ وتضحية جودٌ وكرم ، برٌّ وصلة ، رعايةٌ وعناية ، سلامٌ ووئام ، تناصحٌ وتشاور ، تعاونٌ وتآزر ، تآلفٌ وتآخ . .

لقد مرّ بنا الحديث عن بر الوالدين ، وطاعة الأبوين ، وتلك المسألة هي نقطة البداية للانطلاقة الأخلاقية العظمى المنبثقة من الإيمان بالله ورسوله ﷺ .

تلك الانطلاقة التي تبدأ من الأسرة الصغيرة لتعمّ بروعتها وحسنها وجمالها وجلالها الأسرة الإنسانية جمعاء ، تلك المثل والتعاليم بدايتها أشبه ما تكون بالحصاة ، تقذف بها في اليمّ ثم تبدأ تنداح الدائرة وتتسع

في تناسق بديع ، ومنظر بهيج . فالانطلاقة تبدأ من البيت بل من أخص ساكني البيت ، وهما الوالدان ، ثم تتسع الدائرة لتشمل الزوجة والأبناء والأقارب والأرحام ، لتعمّ المسلمين جميعاً بل وغير المسلمين .

وبعد حديثنا عن الآباء والأبناء ، والأقارب والأرحام ، ننتقل إلى فئة أخرى من فئات المجتمع التي شملتها العناية الربانية ، والرحمة الإلهية ، والتوجيهات القرآنية ، وقد جاءت مرتبة بحسب الأهمية والأولوية ، ويجمعها جميعاً قول الحق جل وعلا ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** ﴾ [النساء : ٣٦] .

فقد بدأت الآية بالحديث عن القاعدة الأولية التي يقوم عليها المجتمع المسلم وهي قاعدة التوحيد الخالص ، التي تنبثق منها حياته ، وينبثق منها منهج هذه الحياة في كل جانب ، وفي كل اتجاه . ثم يأتي بعد ذلك الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما ، ثم الإحسان إلى ذوي القربى ، وقد تحدثنا عن ذلك ، إذ لا بد أن يبدأ البر والإحسان من البيت أولاً مع الوالد والوالدة ، مع الابن والبنت ، مع الزوج والزوجة ، مع الإخوة والأخوات ، مع العمة والعمات .. إلخ . وهكذا تتسع الدائرة لتشمل جميع الأقارب والأرحام ، ثم عموم المسلمين ثم الإنسانية جمعاء .

ومن لم يتعلم البر والإحسان مع الأسرة الصغيرة – أهله وأقاربه – فلن يفلح في تعامله مع الأسرة الكبيرة – المسلمين جميعاً – ومن لم يقم

بواجبه تجاه والديه وذويه ، فلا خير فيه يرجى لغيرهم ، ولا إحسان منه يؤتى لسواهم . فإن مشاعر البر والإحسان والصلة وحسن المعاملة إذا عمرت بها الأسرة الصغيرة ، تتسع بعد ذلك وتفيض على جوانب الإنسانية الأخرى . فالمرء يتعلم حسن التعامل ، وجميل الإحسان ، ورائع الخلق في جو الأسرة الحاني ، ومحضنها الرفيق ، ومن هناك يتوسع في علاقاته بالأسرة الإنسانية كلها ، بعد أن زُرِعت بذورها في حسِّه ، وتغلغلت روعتها في وجدانه ، وأضحت جزءاً من كيانه ، وفيضاً من إيمانه ، ولهذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » [رواه الترمذي ، وابن ماجة] ، فالذي لا تبدأ خيريته بأهله ، ولا تنطلق أفضليته من بيته ، فلا خير فيه لغيرهم .

حديثنا اليوم عن حسن الجوار ومنزلة الجار في الإسلام . ولقد جاوزنا الحديث عن اليتامى والمساكين – بحسب ترتيب الآية – لأن الإحسان إليهما لازال والحمد لله بخير ، ولكن قدمنا الإحسان إلى الجار لأن ذلك من الظواهر الهامة التي تحتاج إلى عناية ورعاية ، وتنبيه وتذكير ، وتناصحٍ وتشاور .

والإحسان إلى الجار هو شيمة من شيم العرب ، حتى في أيام الجاهلية يقول عنترة :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مثواها

ويقول حاتم الطائي :

نـاري ونـارُ الجـــــار واحـــــدة
وإليــــه قـــبلـي تـنزل الـقِــدرُ
مـــا ضَـــرَّ جــــاراً لي أُجـــاوِرُهُ
أن لا يـكـون لـبـــابـه سِـــتـــرُ
أُغــــضي إذا مــــا جـــارتي برزتْ
حـــتّى يـواري جـــارتي الخِـــدْرُ

الجار .. رفيق الدرب ، وقرين المسكن ، ومصدر الرعاية ، ومحط العناية ، يعزي في المصيبة ، ويُؤنِس في الوحشة ، ويسلِّي في الغربة .

الجار .. الحبيب القريب ، والمعين الناصح ، والسند المعاون ، والباذل في الحاجة ، والواقف في الملمّة ، والصامد في المهمة ، والساتر للعورة ، والحافظ للغَيْبَة ، والأولى بالمعروف .

قال تعالى : ﴿**وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ**﴾ [النساء : ٣٦] ، فهما ممن أمرنا الله بالإحسان إليهما ، والجار ذي القرى : يعني الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب : الذي ليس بينك وبينه قرابة ، وقيل الجار ذي القربى : يعني المسلم ، والجار الجنب : يعني اليهودي والنصراني . ولا غرو ولا عجب في ذلك فقد كان ﷺ يحسن إلى جيرانه من غير المسلمين ولقد أخذ أصحابه هذا الخلق عنه ﷺ .

روي عن مجاهد أنه قال : كنت عند عبد الله بن عمر – رضي الله

عنهما – ، وغلام له يسلخ شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي ، حتى قال ذلك مراراً ، فقال له : كم تقول هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه » .

وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأساً أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك .

قال ابن حجر – رحمه الله – : واسم الجار يشمل المسلم والكافر والعابد والفاسق ، والصديق والعدو ، والغريب والبلدي ، والنافع والضار والقريب والأجنبي ، والأقرب داراً والأبعد .

وقال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » [رواه مسلم] ، هذه هي المرتبة الأولى ، وهي عدم الأذى ، ثم تتبعها المرتبة الثانية وهي الإحسان إليه .

قال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » [رواه مسلم].

وقال ﷺ : « خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره » [رواه الترمذي] ، فاعلم أخي المسلم أن خيريتك عند مولاك جل وعلا هي بمقدار خيريتك عند جيرانك .

إن الإحسان إلى الجار وحسن معاملته دليل من دلائل الإيمان ، وعنوانٌ للفلاح والنجاح . فالواجب على المسلم أن يبدأ جاره بالسلام ، وأن يسأل عن حاله ، ويعوده في مرضه ، ويعزيه في مصيبته ، ويؤنسه

في وحشته ، ويهنئه في أفراحه ، ويصفح عن زلاته ، ويعفو عن هفواته ، ولا يتتبع عوراته ، ولا يضايقه في مسكنه أو طريقه ، أو غير ذلك مما يسيء إليه . ولا يسمع فيه كلاماً ولا يرضى فيه خصاماً ، ويغض بصره عن محارمه ، ويتلطف بأولاده ويرشده ويوجهه في أمور دينه ودنياه ، ويعينه إذا استعانه ، ويقرضه إذا استقرضه ، ويطعمه من طعامه . . إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة والمكارم المتعددة ، والصفات الحميدة ، والخلال الرفيعة التي يجب أن يقوم بها الجار مع جاره .

لقد أوصى ﷺ الجار أن لا يبيت وجاره جائع ، وبين أن ذلك ليس من كمال الإيمان فقال ﷺ : « ما آمن بي من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به » [صحيح الجامع].

وقال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : « إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيتٍ من جيرانك فأصبهم منها بمعروف » [رواه مسلم].

وأوصى ﷺ بأمور دقيقة ، ولكنها غاية في الأهمية ، فقال ﷺ : « من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره » [رواه ابن ماجة].

وانظر إلى تعاملات السلف – رضي الله عنهم – فهذا أحدهم رأى جاره يبيع داره في دين لحق به ، فقال : ما قمت إذاً بحق جاري إن باعها معدماً ، فدفع إليه الثمن وقال : لا تبعها .

ورأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولدَه عبد الرحمن وهو يناصي – يعني أخذ بناصيته – جاراً له ، فقال : « لا تناص جارك فإن هذا يبقى والناس

يذهبون» .

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشتكي إليه أذية جاره ، فقال له : اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه .. إلى غير ذلك من المعاملات التي أضحت في هذا الزمن للأسف الشديد شبه معدومة عند كثير من الناس فإما مؤذٍ لجاره ، وإما هاجرٌ له معرض عنه ، وإما متكبر متعالٍ عليه ، وحينما تنظر إلى الآية التي أوصت بالجار تجد أنها ختمت بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً** ﴾ [النساء : ٣٦] وذلك لحكمة عظيمة ، فمن الأسباب التي تمنع الجار من الإحسان إلى جاره وحسن معاملته : الكبر والتعالي عليه ، لأنه ذو منصبٍ كبير أو مالٍ وفير ، وجاره فقير ، ومن أعجب العجب أن أكثر المسلمين اليوم متجاورون بيوتاً متباعدون قلوباً ، قد يكون المسلم يسكن في نفس المبنى بل في نفس الدور ، ومع ذلك لا يعرف جاره ولا يعرفه جاره ، فضلاً عن إحسان بعضهم إلى بعض أو سؤال بعضهم عن بعض ، فأين هذه الأخلاق من أوامر الخلاق؟! لقد تفشت ظاهرة القطيعة وعدم الإحسان بين الجيران ، وهو أمر مؤذن بفساد المجتمعات ، ودمار العلاقات ، وضياع الحرمات ، والتعرض لسخط رب الأرض والسماوات .

وقد ذكر الغزالي – رحمه الله تعالى – جملةً من حقوق الجار فقال : «وجملة حق الجار : أن يبدأ بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ، ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويظهر الشَّركة في السرور معه ، ويصفح عن

زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا في مصبّ الماء في ميدانه ، ولا في مطرح التراب في فنائه ، ولا يضيق طرقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما عمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه » .

* خطورة إيذاء الجار وعدم الإحسان إليه :

تعالوا بنا في إيجاز سريع نتأمل النصوص التي وردت عن المعلم الأول والمحسن الأكمل ، والمربي الأعظم ﷺ ، فوالله لقد وردت أحاديث ترتعد لها الفرائص ، ترجف لها القلوب ويهتز لها الوجدان :

١ - نفي الإيمان عن الذي يؤذي جاره .

قال ﷺ : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » قيل من يا رسول الله ، قال : « الذي لا يأمن جارُه بوائقَه » [رواه البخاري] ، والبوائق هي الغوائل والشرور .

٢ - حرمانه من الجنة : قال ﷺ : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » [رواه مسلم] .

والعلماء يفسرون مثل هذا الحديث بأن القصد : لا يدخل الجنة ابتداءً .

وقيل له ﷺ : إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، غير أنها تؤذي جيرانها ، فقال ﷺ : « هي في النار » [رواه أحمد].

٣ - أن المؤذي لجاره يتعرض للعنة والسخط من الناس ومن الله تعالى .

جاء رجل إليه ﷺ يشكو جاره ، فقال له ﷺ : « اصبر » ، ثم قال له في الثالثة أو الرابعة - أي بعد أن تردد عليه ثلاث أو أربع مرات - « اطرح متاعك في الطريق » قال : فجعل الناس يمرّون به ، يقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره ، قال فجعلوا يقولون : فعل الله به وفعل ، فجاءه جاره فقال له : « ارجع لا ترَ مني شيئاً » [رواه أبو داود].

وتعال معي إلى مسك الختام ، وروعة الكلام ، للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، أصِخْ سمعك ، وضع يدك على قلبك ، وأنت تستمع إلى ما يهز الوجدان ، ويطرب الألباب ، ويلهب الضمائر ، كلام يرتجف الفؤاد لروعته ، وتُبهر النفس بعظمته ، وترتعد الفرائص لهيبته ، تسمعه فتطرق في إجلال وخشوع وخضوع للمولى جلّ وعلا ، وتزداد احتراماً وافتخاراً بهذا المنهج الحق ، والدين القويم ، الذي يقدر الإنسان غاية التقدير ، ويهتم بمشاعره أعظم اهتمام ، ويوصي بحقوقه أجمل وصاية ، ويرعى حرمته أفضل رعاية .

عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلي أريد النبي ﷺ فإذا به قائم ورجل معه مقبل عليه فظننت أن لهما حاجة ، قال الأنصاري: لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت أرثي لرسول الله ﷺ من طول القيام ،

فلما انصرف ، قلت : يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثي لك من طول القيام . قال : «ولقد رأيته» ، قلت : نعم ، قال : «أتدري من هو؟» ، قلت : لا ، قال : «ذلك جبريل مازال يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . .» [رواه أحمد] .

يا للروعة ، يا للعظمة ، يا للجمال والجلال ، الله جل وعلا يرسل روح القدس عليه السلام ، ليقف وقوفاً طويلاً مع محمد ﷺ حتى أشفق عليه الصحابي من طول القيام ، كل ذلك من أجلك أنت أيها الإنسان ، من أجلك أيها الجار يوصي بك ، ويحرص عليك ، ويرعى حقوقك . فلنتق الله أيها الأحبة ، ولنمتثل أمره ، وأمر نبيه ﷺ ، فنحترم جيراننا ونحسن معاملة إخواننا ، لنفوز برضا ربنا ، ومحبة إخواننا .